الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

١٠٥٨ — ١٢٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامى

١٠٥٨ — ١٢٥٠

لما توفى طغرل بك فى عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولها أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لاتقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلا ، كريما بوجه عام ، لايتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضى جزءا كبيرا من وقته فى دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التى تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم[1] .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه — « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس ،

مختل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه فى معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجىء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة(٢) ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينما كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفى نظام الملك على البلاد فى عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد فى أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم فى المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ،

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد فى عام ١٠١٧ ، على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا فيما بين عامى ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب ــ سياسة نامه أى كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه فى الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيما فى حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفى عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً فى طائفة من أعجب الطوائف فى التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية ــ وهو الحسن بن الصباح الذى تجمع إحدى القصص المشكوك فى صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك ــ استولى على حصن ألموت (عش النسر) فى الجزء الشمالى من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذى يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتنقيها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة فى كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية . وكانت فى الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » ؛ وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤساؤهم من الأوامر ؛ ويقول ماركو بولو Marco Polo الذى مر بألموت نفسها فى عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما فى الجنة — على حسب ما يعتقده عامة المسلمين — من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جىء بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم فى الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ؛ فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التى كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا فى خدمته(٤). وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أى الذين يشربون الحشيش — ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجى الذى يطلق على المغتال . وظل حسن يحكم ألموت خمسا وثلاثين سنة ، وأحالها مركزاً للاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هى التى قتلت كنراد المنتفراتى Conrad of Monteferrat بتحريض رتشرد قلب الأسد(٥). وفى عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره . ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسالمين خليقين بالاحترام ؛ وفى الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم(٦) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون فى أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة فى أثناء حكمه الذى دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت فى أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام فى الموصل أحد مماليك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) فى عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبيين حرباً عوناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ — ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكما عادلا حازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التى أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعضع الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر فى دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء فى اللهو والشهوات بين نسائهم اللاتى لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدهم الترف والانغماس فى الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث فى

عام١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين(*) من القواد . واستعان أحداهما وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه فى الوزارة ابن أخيه الذى صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin .

وقد ولد صلاح الدين فى تكريت الواقعة فى أعالى نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية — غير ساميَّة . وكان أبوه أيوب قد ارتقى فى مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك فى أيام عماد الدين زنكى ، ثم والياً على دمشق فى أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين فى هاتين المدينتين فى بيت من بيوت الإمارة ، وتثقف فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة فى المعيشة لاتكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين . وكان خير أثوابه ثوبا من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ؛ وكان مضرب المثل فى اعتداله فى العلاقات الجنسية ، وبلغ فى ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار برسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكما على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة فى عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو فى سن الثلاثين ، فبذل جهده فى إعادة المذهب السنى إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمى الشيعى اسم الخليفة العباسى السنى فى خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسى فى ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية فى بغداد . وكان الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين فى ذلك الوقت ، مريضاً فى قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب.

(*) هما شاور وضرغام . (المترجم)

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنباؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نحبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عظماء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشىء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده ، وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاة الأفاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكا وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحريص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبيمارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشئات العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكمه ، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط فى أحوال الأسر المحلية التى اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم الدولة الأيوبية فى بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما فى مصر فقد ظل مزدهراً حتى عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده فى عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) صديق فردريك الثانى . وفى آسية الصغرى أقام السلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها فى أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التى كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل فى صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت فى الزمن القديم عاصمة الحيثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ — ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسى . وفى هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسى أسس چنكيز خان الدولة الإسلامية الأسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى فى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله فى الشعر ، والعلم ، والفلسفة ؛ وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen فى الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة — طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر — من أقدر الحكام فى العصور الوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ؛ ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين فى رد الصليبيين ، ولكن هذه الجهود ستأتى فى موضعها من الأجزاء الأخرى (المترجم) .

أقل شأناً من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين فى مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد فى بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامى ، والسعدى ، وجلال الدين الرومى ؛ وبلغت العمارة فى أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين(*) ، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين(٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً فى عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتئذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالا . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متلألئ ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد فى الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثانى

المسلمون فى الغرب

١٠٨٦ — ١٣٠٠

توفى الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين فى عام ١٢٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون فى القاهرة أن يوفقوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها فى الملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هى الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله فى الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك ضرباً بالقباقيب . وكان أيبك قد عاش من العمر ما يكفى لإنشاء أسرة المماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم فى العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بنى أيوب يستخدمونهم فى حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً فى رومة وبغداد ؛ وظل المماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ — ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال فى عاصمة ملكهم ، ولكنهم جملوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم فى واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردوا آخر محارب مسيحى من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠—١٢٧٧) .

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاؤه وبسالته إلى منصب القيادة فى الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظير تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلا ، عفيفا ، عادلا بين شعبه ، رحيما برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشا وأسطولا قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى اخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان المنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليونا من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام ، ورُفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ؛ واحتفر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ المماليك ، إذ نحر عشرين ألفا من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخضر يطينها الخصيب ليستمد منها حاجته كل يوم(٩) . وأقفرت خزانة

الدولة الرومانية فى أيامه ، وكان سببا فى ضعف خلفائه ضعفاً خارت له فيما بعد قوة المماليك .

وبعد فإن سلاطين المماليك لايقعون فى نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم إنهم خلفوا منشئآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء فى مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية فى تاريخ العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة فى عهدهم (١٢٥٠ — ١٣٠٠) أغنى مدن العالم الممتد فى غرب نهر السند[١٠] ، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة فى جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تختفى بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها فى الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلى أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم[*] ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة فى القاهرة جديرة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجد فى القاهرة كما فى سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل أفيون إنجليزى » لدكونسى . (المترجم)

وفيها نساء يثرثرن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلسة من وراء النوافذ ، والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ، والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتنزهين ، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب النزهة . هذه هى القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى(*) .

لله بســـتان وما قضيت فيه من المآرب
لهـــفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقنى والجـــو منـــــه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحائب
والطل أغصـــانه يحكى عقوداً فى ترائب
وتفتحت أزهـــاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنبـــاته ثمـــر كأذناب الثعالب
وكأنمـــا آصـــاله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيـــة لى فى الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسر كان لها هى الأخرى شأن عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ — ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ — ١٥٣٤) حكام تونس ، والحموديون (١١٣٠ — ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون (١٠٥٦ — ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ — ١٢٦٩) أمراء مراكش . وفى

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة **Cairo** تأليف استانلى لين پول **Stanley Lane Poole** ونقلها لين پول عن پالمر . وقد رجعنا إلى كتاب پالمر بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة كل الدقة وهى فى صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالمر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التى كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتنهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع فى الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذى بلغ درجة عالية من الكفاية فى أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ — ١١٠٦) ، أن اختل فى أيام ابنه على (١١٠٦ — ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتنم ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت فى تلك البلاد فى عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شىء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة فى العيش وفى العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن فى آخر الأمر أنه هو المهدى المنتظر والمنقذ الذى يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة فى أن يفعلوا مثل هذا الفعل فى الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش فى عهد عبد المؤمن (١١٤٥ — ١١٦٣) وأبى يعقوب يوسف (١١٦٣—١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة ؛ لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ — ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلى عن الفلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس فى الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدى قوات المسيحيين المتحدة فى واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة — قرطبة فى عام ١٢٣٦ ، وبلنسية فى ١٢٣٨ ، وإشبيلية فى ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقتهم جبال سيارا نقادا أو الحاجز الثلجى بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هى والبلدان التابعة لها — شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة — وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هى البقية الباقية فى أوربا من تلك الثقافة التى جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالا من مفاخر بنى الإنسان .

الفصل الثالث

نظرات خاطفة فى الفن الإسلامى

١٠٥٨ - ١٢٥٠

فى هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء فى غرناطة والقصر والحرلدة فى إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعمارى الجديد بالطراز المراكشى morisco ظنا أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهى أيضاً من مميزات التاج محال فى الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامى وما أكثر غناء ! وقد كان الفن فى ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما فى مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل يهدف إلى الرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثّال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً فى العمارة ؛ وقد شادوا أولا بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذى كان يحرس الوادى الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصنا وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذى وضع تصميمه لأبى يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالونى المهندس القرطبى ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب لملوك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه پدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٥٢٦) . . . وإزبلا (١٨٣٣) تعديلا فى بنائه ، أو رممه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً فى بنائه ، ولكنه يغلب عليه فى نمطه وصنعه الطراز الإسلامى أو الإسلامى — المسيحى .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد فى عام ١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شىء فى هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس فى عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (١٢٣٥) ؛ ثم هدمت هذه الكنيسة فى عام ١٤٠١ ، وأقيمت فى مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم فى بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الاثنتان والثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلثان الأعليان من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر ، وفى أعلاها تمثال من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الدينى غير المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا — أى الذى يدور — الأسبانى من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون فى مدينتى مراكش (١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفى غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ — ١٢٧٣) فى عام ١٢٤٨ بتشييد أعظم صرح فى الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Darro والجنيل Genil . وقد وجد الأمير فى هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة Acazabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى ، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلى أجزاء أخرى فى فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدى المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقص كئيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذى لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذى فى داخل السور ليكون أولا حصنا يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً فى هذا مبدأ العمارة الحربية التى نمت وتطورت فى بلاد الإسلام الشرقية(١٢) ، لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلا إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبهاء والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة فى الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتى تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت فى بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفى داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينا كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجرى من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتعس حظ من من خسر هذا كله ! »(١٣) وفى الفناء الرئيسى للقصر المعروف ببهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما فى البواكى المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان فى صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أطفأ بريقها كر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية فى الطراز الإسلامى الأندلسى . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا فى فنهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هى والروح تملان حتى الجمال والحذق . وهذه الدقة فى الزخرف تبعث فى النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن تشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفى كله تقريباً قد عاش بعد اثنى عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساقى ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامى الأندلسى من العظمة ، كما توحى فى نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف فى الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبحاسة الجمال المرهفة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسى الإسلامى فى القرن الثانى عشر من أسپانيا إلى شمالى إفريقية ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التى تبهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما فى مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامى بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه فى الجنوب الشرقى من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا فى بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلهم حذوا فى طرازها حذو القلاع التى شادها الفرنجة فى بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون فى حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا فى دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث فى هذه الأثناء انقلاب فى فن العمارة حول فى جميع بلاد الشرق الإسلامى الطراز القديم فى عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذى المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز الجديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون فى وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة فى التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقى أى من مكان الصلاة — الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة — امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصـــة لوجود مذهب منها فى القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العمارة فى عهد المماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيؤها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتلألأ فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطع القرميد التى قاومت حتى الآن عوادى الزمان والتى لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد فى المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى فى أرمينية ، والمدخل الفخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمدخل الكهفى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز فى جامع سرتجيلى ؛ ونذكر منها فى بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر فى بغداد ؛ وفى فارس برج طغرل بك فى الرى وقبر سنجر فى مرو ، والمحراب المتلألئ فى مسجد همذان ، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة فى المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والمحراب فى جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التى بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق فى العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع فى إصفهان الذى لا يدانيه فى بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا فى مشهد والذى أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها فى عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد فى قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده فى عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا فى عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب — ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً — مزينة بالقاشانى والفسيفساء الذى لا يكاد يوجد له نظير فى تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعامات ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها فى بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قوماً همجا ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام فى التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم فى عصر الإيمان الذى يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المبانى السلجوقية الضخمة الجريئة فى وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معمارى جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز فى الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطى فى فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التى جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة فى ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألئة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح ، وضمت أجزاءه جميعها فى وحدة ؛ وفى هذا الوقت بالذات اجتمع فى البناء العقد المستدق ، والقبو ، والقبة أحسن اجتماع (١٤) .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها فى هذا العصر العجيب عصر العظمة

والاضمحلال . فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التى لاغنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه فى ذلك الوقت من تنوعٍ فى الشكل وجمال(١٥) . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشانى ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصينى ، وخاصة ما كان منها متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسى . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين فى الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسى مع هذا بقى طوال القرون الثانى عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لايفوقه فخار آخر فى العالم كله — فقد كان فى تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه فى العالم كله(١٦) .

ولم تكن الفنون الصغرى فى بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التى تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق فى هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصـــور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية فى هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها(*) . وكانت كنوز الفاطميين التى فرقها صـــلاح الدين تحتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقرمانى ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون فى هذه الأيام ؛ وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشورى القديم فى مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رثتشيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالميناء بمبلغ ١٣,٦٥٠ ريالا أمريكيا .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية فى القرن الخامس عشر(١٨) . وكان النحاس ، والبرنز ، والشبَّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصوانٍ ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثرييات ، ومقالم ، ومحابر ، ومدافئ ، ومباخر ، وتماثيل للحيوانات ، وصناديق للمصاحف ، ومساند للمواقد ، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات ؛ . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة فى كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب ، والأبواب ، أو القبور . وفى متحف الفنون الجميله ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول ، وإوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجه الفن الفارسى فى العهود الإسلامية من تحف فضية ، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة(١٩) .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو إحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير . غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسى المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبابيك الشَّعرية ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شَعْرية أو يكدح فى عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير ، والأطلس ، والحرير المشجر ، والأقمشة المطرزة ، والمخمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التى كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو پولو فى آسية الصغرى حين زارها فى عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس فى العالم كله »(٢٠). ويقول جون سنجر سارچنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى فى قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت »(٢١) ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذى برزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التى نسجت فى عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن فى وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منقطعى النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة فى العصر المغولى .

وكان التصوير فى الإسلام من الفنون الكبرى فى الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى فى الرسم على الجدران ، وفى الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمى الآمر (١١٠٤ — ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ليرسموا له فى حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت(٢٢) ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له فى سالف الأيام . وقد بلغ التصوير فى عهد السلاجقة ذروته فى بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى فى المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه فى عصر المغول الذى تلا ذلك العصر فى بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالا للشك فى ازدهاره فى ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدى الصناع تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقة والأيوبيين والمماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ فى

دقتها بيوت العنكبوت ؛ وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم فى استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل فى بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملا لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التى لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعدّ أثمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف فى رسم أو نص . وفى ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذى يتيحه للعقل منظر خط متقن الرسم »(٢٣) .

الفصل الرابع

عصر عمر الخيام ١٠٣٨ — ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء فى ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبعلبك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان فى بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها فى سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء فى المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالمجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان فى المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالمجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن فى بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأنا نسمع عن وجود شيخة — أى أستاذة — يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسپازيا Aspasia وهيپاشيا Hypatia . (١١٧٨)[٢٤] .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت فى أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان فى الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفورى العدد والثراء ، وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتقنة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى فى عام ١٢٤٨) ترجم لأربعمائة

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ؛ وبز محمد بن خلكان (١٢١١ — ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه **وفيات الأعيان** الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختتمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه »(*) وحلل محمد الشهرستانى فى **كتاب الملل والنحل** (١١٢٨) المشهورَ من أديان العالم وفلسفاته ، ولخص تواريخها ؛ ولم يكن فى مقدور أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ — ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات الوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتجديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجمل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح الذى لا يبيح وصال المليح
إذا ما سمـــح
وجل فى المحال ولو بالمحـــال ودع ما يقال
وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسپانيا(٢٦) . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التطيلى(**) جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان ســـافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صـــدرى(٢٧)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرءوها ؛ وفى القاهرة ظل البها زهير يغنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلامى كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الأداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية . (المترجم)

(**) أبو العباس التطيلى . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون فى حديثه عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بقى موشحته وتبعه الباقون » . (المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسفى إذلا أجد نصيراً خليقا بمديحى
وما أشد أسفى إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلى ! (٢٨)

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ — ١١٨٥) ، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعرا يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه :

أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسدى إليك نصيحة لا أقتضيك عليها أجراً :

لاتهجون أسن منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى(*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ؛ وتضعه بلاد فارس بين علمائها الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلاهواً عارضاً. كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى »(٣٠) . وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز Baker ، والفخرانى Potter ، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين(**) فى الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى الخوارزمى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا، بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أبا العلاء صاعداً الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .

(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه « ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية فى العصور الوسطى »[٣١] ومنها كتاب آخر فى الجبر (وهو كتاب مخطوط فى مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعاريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء فى عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسى ، وكانت نتيجة عملهم تقويما لا يخطئ إلا فى يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً — أى أنه أدق قليلا من تقويمنا الحاضر الذى يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاما[٣٢] . وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التى تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامى كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجرى . ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكى من شهرة واسعة تلك القصة التى يرويها عنه نظامى عروضى الذى عرفه فى نيسابور :

فى شتاء سنة ٥٠٨(*) فى مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه فى طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام — وكان ينزل داره — أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع فى هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة[٣٣] .

والرباعيات فى أصلها الفارسى قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا . وتعبر كل منها عن فكرة كاملة فى شعر جامع محكم . ولسنا

(*) أو ١١١٤ — ١١١٥ م .

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام ،وقت طويل . ولم يكن هذا الشعر فى الأدب الفارسى جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها(٣٤) . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك فى أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسى لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل ؛ ويحتوى على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجديا(٣٥) . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيّام — بعضها إلى أبى سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا(٣٧) . وإن من الصعب ، إلا فى حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التى تعزى إلى الخيّام من أقواله حقا(٣٨) .

ولقد كان المستشرق الألمانى ڤون همر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربى إلى رباعيات الخيّام فى عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فتزجرلد Edward Fitzgerald فى عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً فى نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت فى تعديل الصورة التى كانت فى عقول الناس عن العالم الرياضى الفارسى حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر فى العالم . ويرى العارفون بالأصل الذى ترجمه فتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التى ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسى تعبيرا صادقا أمينا ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها فى أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثر فتزجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لانجد لها أصلا فى أى نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فتزجرلد نفسه ، وقد استبعدها هو فى الطبعة الثانية(٣٩).

ولسنا نجد فى رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فتزجرلد(٤٠) وهى التى تقول :

إننى أدعوك يا من أنجما من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما كيفما زل امرؤ أو أجرما
فاحبه وأسأله غفران الأنام(*)

أما فيما عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فتزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسى تتجلى فيها على الدوام روح عمر . وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فتزجرلد الدرويشية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام بقرن واحد لا أكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فتزجرلد ، فرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادى تعس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لا نظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه ؛ ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سيء الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لهما الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

(*) من ترجمة المرحوم محمد السباعى .

الخفية ، ولكن الصوفى نجم الدين الرازى يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين فى أيامه(٤١) .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر فى هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبى العلاء المعرى(٤٢). وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل فى حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى فى الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتى بعدها من المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربى وعالمين وليا عن غاربى
ما عادلى بالشر إما حاق بى شأن ولا خيرهما إن ضاق بى
ودعها يا قلب عند ضارب بأكرة يرسلها لضارب
تجد أخاك نائما كشارب سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجملا
أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا
واعقله من كل شىء سلا بين سماك نافر وهلا(*)

(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفى السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون فى مدح الغيبوبة أقوالا شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفة من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دريى خشبة مشكوراً فترجمهما شعرا . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع فى عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الخيام ؛ وما من شك فى أنها لم يكن لها إلا شأن قليل فى الخمسة والثمانين عاما التى امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ، لا فى صورة السكير الذى يستلقى مخمورا فى الطرقات ، بل فى صورة العالم المسن العاكف فى هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلأ كالنجوم . ويبدو أنه كان يحب الأزهار كحب المحصورين فى أرض جدباء ، وإذا أخذنا بقول النظامى العروضى فإنه قد نال بغيته فى أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير . قال النظامى :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ — ١٣م) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد ، وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع . وظننته يقول مستحيلا ولكننى كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥م) فقيل لى بأن ذلك الرجل العظيم قد مات ؛ وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة ، وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ ، وغشينى الحزن ، وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له نداً بين الرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدى(*) ١١٥٠ — ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده فى المدينة المعروفة الآن بفيروزاباد بالقرب من تفليس . وكأن الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبى محمد الذى عرف بعدئذ باسم نظامى وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية فى أبشع صورها فجعلته يستمسك فى حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلى والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص(**) الغرامية فى الشعر الفارسى . وخلاصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباها أرغمها على أن تتزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة فى قيس وأفقدته عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلى أمامه . ولما ترملت ليلى جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ؛ ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رميو نفسه عند قبر چولييت . وليس فى مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسى من قوة فى التعبير وجمال فى النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التى يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لمحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف فى عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدى الشيرازى . (المترجم)

(**) نظم المرحوم أحمد شوقى هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتى ألف بيت من الشعر أشهرها كلها **منطق الطير** . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفيا) يعتزمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويجتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردى) . وتصل ثلاثة من الطيور الوادى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المختفى . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون ترابا ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب فى صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شىء واحد . ويفنون من هذا الوقت فى سيمرغ كما تفنى الظلال فى ضوء الشمس . ويعبر العطار فى كتبه الأخرى عن عقيدته فى وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة فى كل شىء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس فى مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح[٤٥] . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعدونه بدعة وضلالا ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذى نادى به فيما بعد معلماً له ، والذى فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومى (١٢٠١ — ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته فى قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفى عجيب هو شمس تبريزى

ليخطب فى أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين فى حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها فى ديوانه ؛ وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الدينى من عهد المزامير . وكتابه المثنوى المأنوى عرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق فى حجمها كل ما خلفه هوميروس ؛ وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر . وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دق إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَن الطارق ؟ فأجابه « أنا » ؛ فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لى ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم فى عزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودق الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَن الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب(٤٦) .

* * *

ونظرت حولى أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثى نحو الكعبة ، ولكننى لم أجده فى هذا المكان الذى يلجأ إليه الشيان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبى ، وفيه وجدته ، ولم يوجد فى مكان سواه(٤٧) .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها فى العالم اللامكانى ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رآيته ، اوقول حكيم سمعته — فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظنن أن الماء سيفرغ فمعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لتفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر جمادا ، ثم استحلت بعدئذ نباتا ؛ ثم صرت حيواناً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ؛ وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بحراً . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك(٤٨) .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقى أطول من هذا — فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام ، الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فمنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣(٤٩) ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١(٥٠) ، ومنهم من يحددهما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١(٥١) . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هو نفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة(٥٢) . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) ، بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقين الأدنى والأوسط — الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالى إفريقية . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه(٥٣) . وكشف وهو فى الهند عن جهاز فى صنم قيل عنه إنه يأتى بالمعجزات ، وقتل الدعى البرهمى المختفى فيه والذى كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى فى شعره المتأخر المارح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على المحتال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط فى أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجما بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون(٥٤) » .

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداه ليعبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذات الجمال قيد فى قدمى صاحب العقل »(٥٥) . ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه فى سلسلة أخرى ؛ ولما ماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة فى حديقة بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البير ناما وهو كتاب فى الحكمة ، وديوانه وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدى فى كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمى الفلسفى ، تتخلله فى بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف فى حياتى أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبتى لما أن ضممتها إلى

صدرى فى تلك الليلة ونظرت إلى عينيها بكاد يغلبهما النعاس : « أى حبيبتى يا غصن بان لقد آن أوان النوم . غنّ يا بلبلى ! وافتحى فاك كما تتفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » .. ونظرت إلىّ حبيبتى وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظنى من نومى ؟ » .

. . . وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك . . . وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقلّ حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعبهما بيديك ؟ . . . يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك(٥٦) .

والجلساء وحديقة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سأل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أى شىء أفضل من الصلاة ؟ فأجابه الولى بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا تؤذى أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت »(٥٧) .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد ، ولكن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها(٥٨)

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب الهناءة(٥٩) .

إن رجل الدين الذى يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل(٦٠) .

لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان فى مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال(٦١)

لو كان فيك فضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير فضيلتك الوحيدة(٦٢) .

لا تعجل . . . وتعلّم الأناة . فإن الجواد العربى يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره(٦٣) .

حصّل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقده لأن علمه فى حد ذاته معين للثراء لا ينضب(٦٤)

إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب(٦٥)

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل »(*)(٦٦)

إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة(٦٧) .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب فى وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهى تفهم ما فى الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما فى الحياة الحنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما فى ملهاة الحياة البشرية من مآس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز(٦٨) « إنى كنت وصديقى كحبتين فى قشرة لوزة »(٦٩) ، « لو أن قرص الشمس كان فى جُبَّة » هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بحظهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة »[٧٠] . وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة .. وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب :

لقد قدّر علىّ ألا أضم حبيبتى إلى صدرى
وألا أنسى بعدى الطويل فى قبلة أطبعها على شفتيها الحلوتين
وسأختلس منها ذلك الشراك الذى تقتنص به ضحاياها فى طول البلاد وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالمجىء إلى جانبى
ولكننى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرفة فى الجرأة
فكم فى هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور فى الأقفاص
أنا عبد لهذا القد المياس الذى يبدو فى نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة تفضيلا كما يفصل الخياط الثوب
يا شجرة السرو يا أطرافا من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة الآس ونضرة الورد البرى
احكمى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر وجميل
وامشى فوق الياسمين والأزهار
ولا تعجبى إذا أيقظت فى زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى بينما الأزهار الصغيرة تبتسم ، وكل هذا يا حبيبتى من أجلك
وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه
لم يبق مكان للحيرة فى بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك
سوى أننى جننت بحبك وجن الناس بفنائى فى حبك[٧١] ؟

الفصل السادس

علوم المسلمين

١٠٥٧ — ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب فى العصور الوسطى طبقتين — طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ؛ ووضعوا فى الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك فى اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله فى العالم ؛ أما الطبقة الثانية — وخير من تشملهم الصينيون والأتراك — ، فهى أشبه بالحيوان منها بالإنسان(٧٢) . وأكبر خطأ فى هـذا التقسيم هو وضع الصينيين فى الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون فى العصر الذى نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع فى العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم فى علم الرياضة فى مراكش وأذربيجان ، ففيهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقى عظيم : ففى مدينة مراكش نشر حسن المراكشى فى عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيوب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المتماسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسى أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلا بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقى كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس فى هذا الميدان حتى نشر رجيومنتانس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذى ظهر عند الصينيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عربى النشأة(٧٣) .

وأشهر ما ظهر من الكتب فى العلوم الطبيعية فى ذلك العهد هو كتاب ميزان الحكمة الذى ألفه فى عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفى هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شىء نحو مركز الأرض(٧٤) . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقى التى كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقى ترفع الماء من نهر العاصى فأدخلوها فى ألمانيا(٧٥) . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس(٧٦) ؛ ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه فى البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبتاً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائى إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسسه أذى(٧٧) .

وفى عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلى أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة فى التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٥ر٨١ بوصة) ؛ وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها(٧٨) . وكانت خرلدة أشبيلة منارة ومرصداً فى وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التى نشرها فى كتابه إصلاح المجسطى (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات أبى إسحق البطروجى القرطبى (المعروف عند علماء الغرب باسم البتراجيوس Alpetragius) والذى مهد السبيل لكوبرنيق بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز وهى التى حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالمين فى تقويم البلدان ظبقت شهرتهما العالم كله فى العصور الوسطى ، ونعنى بهما الإدريسى وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسى فقد ولد فى سبتة عام ١١٠٠ وتلقى العلم فى قرطبة ، وكتب فى بلرم إجابة لطلب روجر الثانى ملك صقلية ، كتابه المسمى **كتاب روجارى** . وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط فى العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلا . وكان الإدريسى يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من العلماء المسلمين بكرية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية فى العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ — ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسر فى الحرب وبيع فى سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادى الذى ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولا للتجارة ، ثم سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفى الأجناس ، وبلباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة فى مرو تحتوى إحداها على ١٢٫٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتى كتاب إلى حجرته دفعة واحدة . وما من شك فى أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى فى عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ؛ ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعانى آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله فى نسخ الكتب كتابه الشهير **معجم البلدان** (١٢٢٨)

— وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة — من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ؛ هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدى المسلمين فى ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوافراسطوس ؛ فقد وضع الإدريسى كتابا فى النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعا مختلفا منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبى العباس الإشبيلى (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التى تنمو بين المحيط الأطلنطى والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار المالقى (١١٩٠—١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون فى علم النبات فى موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هى المرجع المعترف به فى هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيادلة فى العصور الوسطى(٧٩) . ومن أهم ما ظهر من الكتب فى العلوم الزراعية **كتاب الفلاحة** الذى وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلى أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعا من أنواع النبات ، وخمسين نوعا من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث فى علم الفلاحة فى العصور الوسطى جميعها(٨٠) .

وأنجب المسلمون فى هذا العصر ، كما أنجبوا فى غيره من العصور أعظم الأطباء فى آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم ما نبغوا فيه علم الرمد ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار فى بلاد الشرق الأدنى ، ففى هذه البلاد كان الناس يبذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العدسة (سادّة العين أو الكتركتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (١٢٥٦) بحذقه فى هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور[٨١] . ووضع ابن البيطار فى كتاب الجامع تاريخ الطب النباتى . فقد وصف فى هذا الكتاب ألفا وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائى ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها فى علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ — ١١٦٢) الأشبيلى المعروف فى عالم الطب الغربى باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعى الصيت متصلى النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب فى أيامه ، وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذى كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكى ؛ وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب الثامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومى[٨٢] . وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر فى الطب الأوربى .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله فى إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيمارستان الذى أنشأه نور الدين فى دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ؛ ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة[٨٣] . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد فى عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيمارستانها العظيم الذى كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذى كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن(٨٤)(*) . وفى القاهرة بدأ السلطان قلاون فى عام ١٢٨٥ تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد أقام فى داخل فضاء واسع مسور مربع مبانى أربعة يتوسطها فناء يزدان بالبواكى ، وتلطف حرارته الفساقى والجداول . وكان يحتوى على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ، وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسر العين . وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالا كانوا أو نساء ، أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أوأحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون فى بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة(٨٥) . وكان فى جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير فى وصف هذا البيمارستان : « وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالى والنهضة الدينية

وبينا كانت العلوم تسير قدماً فى طريق الرقى كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعلمة وإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذى قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين فى عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالى المفكرين المسلمين ثلاث طوائف : كلها فى نظره كافرة وهى المؤلهة ، والربوبية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المؤلهة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً(*) . وقامت حركة أخرى على شىء من النظام هى حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشىء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعى هذا المذهب إصبهان بن قرة الذى قال فى يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبة ينبت وينمو ثم يحصد لكى يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب(٨٦) .

وكان رد الفعل الذى نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبى حامد الغزالى أعظم علماء الدين المسلمين ، الذى جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . ولد أبو حامد الغزالى فى طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه فى صغره فكفله صديق له متصوف. ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

فى المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ؛ وسرعان ما أعجب العالم الإسلامى بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته فى الجدل . وبعد أن قضى فى هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه فى بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه فى الأصل مرض عقلى . ولقد أقر الغزالى فى ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامى ، وأنه لم يكن يطيق ما فى دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد فى عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد فى العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير فى العالم الخارجى إلى تأمل العالم الداخلى ؛ معتقداً أنه سيجد فى هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهى القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات — وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً عن الأرض ، وإلا لتعذرت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلا إلى الحقيقة . وأما العقل فهو فى رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد فى النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالى بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة فى تأمل الصوفية الباطنى : فالصوفى يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل فى معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتامل من داخل نفسه ، وحتى تختفى النفس ذاتها فى رؤية الواحد(٨٧) .

وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالى أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى به كتاب **تهافت الفلاسفة** واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ، فاستخدم الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لايقل دقة عن جدل كانت Kant ليثبت أن العقل يؤدى بالإنسان إلى التشكك فى كل شىء ، وإلى الإفلاس الذهنى ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالى العقل — قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون — إلى مبدأ العلية ، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع ا على الدوام ولا ندرك أن ا هى علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لاقيام بغيرهما لأى نظام أخلاقى ، وهو النظام الذى لاقيام لأية حضارة إلا به(٨٨) .

وعاد الغزالى فى آخر الأمر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ما كان يساوره فى شبابه من مخاوف وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه وتنذرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة(٨٩) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث ، وقد شرح فى كتابه **إحياء علوم الدين** هذه العودة إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له فى شبابه من قوة وحماسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى فى عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ، بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه فى كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، فى أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل(*) .

وكان اعتناق الغزالى لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا فى عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس فى المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك فى العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة العائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيهما لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التسامى بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء فى روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فمنهم من كانت وسيلته إلى هذا التسامى هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية فى المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محيي الدين بن العربى (١١٦٥ — ١٢٤٠) — وهم مسلم أندلسى أقام فى دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلية الله نفسه ، والجحيم مقام موقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحبوب ، والمحب الصادق يجد فى أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه . ولعل محي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام چيروم فأخذ يعلم الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم(٩٠) .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالى عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين فى الجسم ولكنهم متحدون فى الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر لهما أن يعودا إلى هذا العالم(*) .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الدينى ، وعادت إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التى يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب . فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا الخيل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هى التى تتطور وتتبدل على مر الأيام بل الذى يتطور هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين فى شىء وبعضها مخالف له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله وهو ما لا يقره الدين . (المترجم)

جديدة وإن أجيز لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يُظهروا الصليب فى خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون فى المدارس الإسلامية ، ولكن كان فى وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام . ولا تزال هذه هى النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هى المعمول بها على الدوام[٩٢](*) . ومع هذا فقد كان فى بغداد وحدها فى القرن العاشر ٤٥٫٠٠٠ مسيحى[٩٣] ، وكانت جنائز المسيحيين تسير فى الشوارع دون أن يتعرض لها أحد[٩٤] ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، فى سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته فى النفوس من أحقاد ، كريماً رحيما بمن فى دولته من المسيحيين .

---

(١) لا ندرى من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هى النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية ، فلسنا نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين فى بعض العهود ، وضعها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة ، ولبست من الدين فى شىء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلا على تسامح المسلمين فى أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (المترجم)

الفصل الثامن

ابن رشد

عاشت الفلسفة وقتاً ما فى أسپانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحذر من الآراء التى تتفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعزعة فى بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سراً بالبحوث التى يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذى ولد فى تلك المدينة حوالى عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له . وكان ابن باجة ، أو أڤمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال فى شبابه ، مرتبة عليا غير عادية فى العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية فى كلا حذاءيه . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى المسيحيين ، فر الوزير — العالم — الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونه بالكفر ، ومات ابن باجة فى سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعدّ رسالته فى الموسيقى التى لم نقف لها على أثر خير ما كتب فى هذا الموضوع الدقيق فى الآداب الإسلامية فى الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب *مرشد الحيران* الذى جدد فيه البحث فى أحد الموضوعات الأساسية فى الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشرى يتكون من جزأين : العقل المادى الذى يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعّال أو العقل الكونى غير البشرى الذى يوجد فى الناس كلهم ، وهو وحده الذى

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله . ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت فى صمت . والرجل العاقل يعيش فى عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛ أو لعل عدداً قليلا من الفلاسفة يؤلفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة فى رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه(٩٥) .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين) (١١٠٧ ؟ — ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو الآخر عالما ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة أبى يعقوب يوسف فى مدينة مراكش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن يقضى معظم ساعات يقظته فى المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة فلسفية فى أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن سينا ولعلها هى التى أوحت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلى Ockley إلى الإنجليزية فى عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حى بن يقظان ، الذى سميت القصة باسمه ألقى وهو طفل فى جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ؛ وشب الفتى متوقد الذكاء عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل فى هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء(٩٦) . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شىء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا

بالعقل الفعال[٩٧] . وأصبح حى بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس . وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع فى سعيه إلى الوحدة أن يلقى بنفسه على الجزيرة ، فالتقى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحى بما فى عقائد الناس الدينية فى الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنذروا به من عقاب النار . واعتزم حى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم فى السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعى إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديعة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

وقدم ابن طفيل إلى أبى يعقوب يوسف حوالى عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطبيباً يعرفه المسلمون باسم أبى الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون فى العصور الوسطى باسم أفروس (Averroés) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً فى العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود فى بنى الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة فى قرطبة ، وقد هيأا له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هـــذه الفقرة التى يقولون إنها هى التى وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه فى السموات ، هل هى أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف لذلك واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة . وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه فى الموضوع ، ويعيد على مسامعه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع فى شىء من هذا إلا إلى ذاكرته مما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمأن الأمير الفيلسوف وامتحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشىء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن(٩٨) .

وعين ابن رشد فى عام ١١٦٩ قاضيا للقضاة فى إشبيلية وفى عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة فى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفى عام ١١٩٤ نفى ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش فى عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته فى العام التالى ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً فى تلك المدينة .

وكاد كتابه فى الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة فى الفلسفة ؛ ولكنه كان فى الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدرى يكتسب الحصانة من هذا الداء(٩٩) . وكانت موسوعته الطبية المسماة **كتاب الكليات فى الطب** بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار فى الجامعات المسيحية . وأبدى الأمير أبو يعقوب فى ذلك الوقت رغبته فى أن يكتب له أحد العلماء شرحا واضحا لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت فى آراء الفيلسوف اليونانى ، وأن كل ما تحتاجه

لكى تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر(*) . واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة فى أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولا للطلبة المتقدمين فى الدرس — وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة فى الصعوبة مألوفة فى الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته فى أوربا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه فى المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو فى المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، وردًّا على *تهافت الفلاسفة* للغزالى سماه *تهافت التهافت* . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدى إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة(١٠٠) بمعناها الحرفى ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة فى عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفى لغير التفكير العارض ، السطحى ، الخطر فى مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظا يعارض الدين(١٠١) ؛ ومن حق الفيلسوف فى مقابل هذا أن يترك حرا يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد

(*) وأبدى سنتيانا Santayana فى كتابه حياة العقل The Life of Reason هذا الرأى نفسه .

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبى ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله . ، وهو الذى يبعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يفنى (١٠٩) .

ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوؤها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان(١١٠) . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه(١١١) . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدى بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفسانى على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن الجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس(١١٢) .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos ncus poietikos) مرجعها كتاب النفس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندرى ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية حديثة ؛ ولكن

بينا كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدى معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفى بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد فى المسيحية أعظم منه فى بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيحى فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينيـــة كانت من أكبر البواعث على نزعة ســـيجر ده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذى بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التى اتبعها ابن رشد فى شروحه وفى كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفى قوله إن المادة هى منشأ الفروق بين الكائنات ، وفى تفسيره الرمزى للنصوص الخاصة بالتجسيد فى الكتاب المقدس ، وفى قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفى رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان(١١٣) . وقد وضع روجر بيكن ابن رشد فى المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التى هى من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد فى هذه الأيام (حوالى عام ١٢٧٠) بقبول جميع العقلاء »(١١٤) .

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفى عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلا عدداً قليلا منها

فى التاريخ الطبيعى ، وحرم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا فى النار جميع كتبها أينما وجدت . . وبادر العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوؤهم ويحز فى نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذى كان عند بعضهم أعز سلوى لهم فى حياتهم المضنية النكدة . وفى هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة[١١٥] ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظرى . ولما أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلامى ، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدها هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كبتها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففى أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفى عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدميراً .

الفصل التاسع

غارة المغـــول

١٢١٩ — ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغرى الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة(*) . وكان السلاجقة قد بعثوا فى بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتى حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الدينى والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصليبيين .

وفى هذه الأثناء كان المغول الضاربون فى شمالى آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لمـا يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا يعيشون فى الخيام أو فى العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين فى استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم جيوڤنى ده بيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه »(١١٦) ، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمئزاز أعظم الناس ثقافة فى هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان — أى الملك

(*) انظر مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

العظيم — أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينا كان چنكيز خان غائباً عن حاضرة ملكه فى كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلقا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقمع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه فى أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ، فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها محلوقى اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٦٠٫٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چجتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقها عن آخرها ، وسبى آلافاً من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابهما ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق فيها البوم . وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هـــذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثه

عشر يوما هلك فيها ١٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة[١١٧] . وقاومت نيسابور الغُزاة ببسالة زمناً طويلا ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة ؛ وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين[١١٨] . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر إلى دهلى . ولما خرجت هراة على واليها المغولى كان جزاؤها ذبح ستين ألفا من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة .

وعاد چنكيز خان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ، ومات فى فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاى جيشا من ٣٠٠٫٠٠٠ للقبض على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشا جديداً فى ديار بكر . وهزم جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً فى أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول أن فتنة قامت فى إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد چنكيز خان بجيش مغولى اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن الحشاشين فى ألموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المشرق من جلة العلماء ، وكبار الخطاطين ؛ وكان مثال الرقة ودماثة الأخلاق ، شديد الاهتمام بأمور الدين ، وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . واتهم المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ، وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات بإباء وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخدع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك فى هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت فى أسبوع واحد المكاتب والكنوز التى أنفقت فى جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن مخابئ ثرواتهم ، ثم قتلوا(١١٩) . وهكذا قضى على الخلافة العباسية فى آسية .

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبقى جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفّت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام وفى أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع ؛ ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات فى التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائى ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدى المغول . لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان فى استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتى بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكنون فى قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التى يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا فى

أربعين عاما لا أكثر ؛ ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . واجتمع الانغماس الأبيقورى فى الملذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها وائتلفت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كله — لاتبدل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مدقعاً ، وخرابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانيه فى الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود(*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانيه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تعمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الغزاة المتوحشون أن يقضوا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ماكان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الخالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ماكان يطوقها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقيننا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه السبيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحى

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى فى التاريخ. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله فى القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى ، والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفى العمارة أسلم مكانته الأولى فى القرن الثانى عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطى منافساً له فى بلاد الإسلام التى كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامى فقد أفنى قوّته فى الزخرفة ، وعانى الشىء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ؛ ولكنه فى داخل هذا النطاق الذى فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة فى بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان فى مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية فى خلال تلك القرون ، وإن لم يكن فى كليهما حظ مختار . غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة فى البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية فى نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً بطيئاً ، فى حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة فى تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ فى البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا فى عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية

والانتشار — حاشاً أن نقول فى الإسلام ، بل نقول فى حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالا أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحى يستخدم طريقة التحكيم الإلهى بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ فى الوقت الذى كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون . واحتفظ الدين الإسلامى ، وهو أقل غموضاً فى عقائده من الدين المسيحى ، بشعائره أبسط ، وأنقى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحى ، وأقل منه قبولا لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتى فى احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لهما من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية فى تصويره الجنة)(*) . وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل فى الوقت الذى كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية .

ويكاد تأثير العالم المسيحى فى الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامى من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت فى الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير(١٢٠) .

أما العالم الإسلامى فقد كان له فى العالم المسيحى أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، والأدوية ؛

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، نقلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد فى وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل على أنه تقريب للمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم)

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ، والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep, elixir, jar azure, arabesque, mattress, sofa muslin, salin, fustian, bazaar, caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, risk, sloop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه فى العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ، والشربات ، والجلاّب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش العربى ، والحشية (واللفظ الإنجليزى مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجليزى مشتق من الصُّفة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق ، والقافلة ، والشاه مات . والتعريفة ، وحركة المرور ، والديوان ، والمخزن ، والخطر ، والفارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت لها فى طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلا مأخوذ من عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى پروڤانس فى فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية للرحلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب فى المسلاة الإلهية The Divine Comedy لدانتى . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوربا فى زيها العربى أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra للجبر ، Zero و Cipher للصفر ، Azimuth السُّمُوت و Alembic للأنبيق ، و Zenith للسمت ، و Almanac للتقويم وهى مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سيناء وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسيين الذين كانوا ينقلون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويثقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوربا[١٢١] ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ؛ وأبراج نواقيسها مدينة بالشىء الكثير إلى مآذن المساجد[١٢٢] ، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة[١٢٣] . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية[١٢٤] . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح فى أسپانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين[١٢٥] ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوربا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التى جاء منها هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التى ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التى قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية(١٢٦) — ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين »(١٢٧) ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسپانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين فى أسپانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة فى عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبقى على الاعتقاد بكرية الأرض(١٢٨) .

لكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاستدانة العلمية . ذلك أن لا شىء بعد الخبز أعز على بنى الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذى يبعث فى قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظا على من يهدده فى قُوته أو عقيدته . ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحى فى إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحيا بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدى المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة(*) . وأمست المعركة المرتقبة فى آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان فى الحروب الصليبية ، وقتل خيرُ ما فى الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامى لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من اللميين أهل الكتاب . (المترجم)

خيرَ ما فى الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملا فعّالا فى تاريخ العصور الوسطى كله ، مضافاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودى قائما بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتيهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحى محارب من الأرض المقدسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد استنزف النصر البطىء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضجه ما بذل من جهود ، فنسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقى . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وڤيون Villon ، وسار تحدوه العزة إلى عصر النهضة .

وبعد فإن القارئ العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هى التى أنجب فيها المجتمع ، فى مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام فى الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلألئ مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة فى الحُكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ؛ ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى أشور بلاد أشور بانيبال ، وإلى بابل حمورابى ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم . وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهرية فى الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث فى الشعب الناشىء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء فى مجتمع ، والأجيال لحظات فى تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات فى كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهى مراحل فى حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهى نتاج تعاونى لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس فى وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالِم وإن كان مواطناً فى بلده يحبه لما يربطه به من صلات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن فى بلد العقل ، الذى لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه فى أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله :

المراجـــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع مجملة فى الجزء الأول ؛ والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل. أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii
2. Hell, J., *The Arab Civilization*,
7. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
3. Encyclopaedia Britannica, II, 184
4. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
5. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nöldek, *Sketcthes*, 7.
6. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 93.
7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
8. Ibid.
9. القرآن الكريم tr. and ed. Pickthall, *The Meaning of the Glorious Koran*. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur'an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, iii, 8.
12. الطبرى — المقدمة

Margoliouth, *Mohammed*, 59,

Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.

13. Browne, E. G , *Literary History of Persia*, I, 261.
14. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
15. Pickthall, p. 2.
16. Browne, *Literary History*, I, 247.
17. Tiedall, W. S., *Origiual Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed* xxiv.
18. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
19. Muir, *Life*, 51.
20. القرآن الكريم
21. II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Rilegious Attitude and Life in Isim*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Saie in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit ofIslam*. 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

3. القرآن الكريم
4. االرآن الكريم
5. القرآن الكريم
6. القرآن الكريم
7. Margoliouth, 69.
8. القرآن الكريم Lane-Poole, 157
9. Ibid.‘ 158.
10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam*, 587.
11. Lane-Poole, 161, 163.
12. Ibid., 162.
13. Ibid.
14. Ali, Manlana. 390.
15. القرآن
16. Ali, Manlana, 655.
17. القرآن
18. Ali, 602.
19. القرآن الكريم
20. القرآن الكريم
21. Pickthall, p. 594 n.
22. Lane-Poale, 161.
23. القرآن الكريم
24. Ameer Ali, 183.
52. Lane-Poole, 167.
26. Quoted in Muir, *Life*; 520.
27. Lane-Poole, 159.
28. Ibid.
29. Sale in Wherry, I, 122.
30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7 ; Songs, ii, 3, xxi, John xvi, 12-13.
31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
32. Nöldeke, *Sketches*, 44.
33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke. 31.
34. Lane-Poole, xi.
35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel*, 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs*. 125.

23. Ibid., 236.
33. Ibid., 238, quoting traditions.
34. Ibid.
35. Andrae, Tor, *Mohammed*, 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.
36. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 58f.
37. Muir. 252f.
38. البلاذرى
39. المصدر عينه
40. Amer Ali, 94.
41. Andrae, 238.
42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris-prudence, and Constitutional Theory* 69.
43. القرآن
44. القرآن
45. Andrea, 267.
46. القرآن
47. Muir, 77, 244.
48. القرآن
49. Muir. 201.
50. Bukhsh, S. K., *Studies, Indian and Islamic*, 6.
51. Muir, 511.
52. Lane-Pool, *Speeches*, xxx.
53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
54. Bukhsh, *Studies*, 6.
55. Irving, W. *Life of Mahomet*, 238
56. Margoliouth, 105; Irving, 231.
57. القرآن
58. الجلستان للسعدى
59. Margoliouth, 458.
60. Gibbon, V, 264.
61. Margololiouth, 466.

CHAPTER IX

1. سورة الرحمن
2. Lane-Poole, *Speeches*, 180.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 835 - 7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2 Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finaly, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. Ibid., 57.
6. Ibid., 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 538.
12. Hell, J., 59 - 60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 222.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 285
16. Nöldeke, 132.
17. الجلستان
18. Burton, Sir R F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 30, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmar, 221.
24. Ibid., 35, Abbott, 113.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.
28. Eginhard, *Life of Charlemagne* xvi, 3.
29. Palmer, 121: البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.
31. العتبى : الكتاب اليمينى
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, G., *Palestime under the Moslems*, quoting Masudi, ii, 438
2. Hitti, 351,
3. Milman, H. H., *History of Lain Christiainty*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*. I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World, III*.
8. Renard, G., *Life aud Work in Prehistoric Times*, 113.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 373.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. Ibid., 318.
19. Browne, I, 223; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-75.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Chrisianity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I. 172.
30. Ali, Maulana, 730.
31. Philby, H., *A Pligrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 522.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 63 ; Sale in Wherry, I, 185.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 87 ; Hitti. 234.
37. Lestrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., The *Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S, W., *History*, I. 319.
39. Guillaume, 132..
40. Catholic Encylopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32,
42. Hitti, 685 ; Sarton, G., *Introduction to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kultnrgesezichte des Orients unter den Khalifen*, 52.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 390.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects* of *Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. Ibid., 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*. 353.
55. Lane E. W. *Arabian Society*,221
56. Ibid., 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 137, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الغزالى ، كيمياء السعادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I,94.
66. Sale in Wherry, I, 168..
67. Hitt. 338.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Perias*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. Ibid., 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 326.
73. Hnrgronje, 98.
74. Macdonaid, *Muslim Theology*, 84 · Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. Lestrange, *Palestine*, 24.
79. Hitti, 236 f.
80. In Lestrange, 120.
81. Ibid., 342.
82. Ibid 301.
83. Ibid., 295-301, 312, 348, 353, 361 377.
84. Ibid., 265.
85. Ibid., 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I,137;Rivoiria G. T., *Moslem Architecture 110*.
87. Yaqub, ii, 587, in Lestrange,
88. Lane. *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islanm*, 389.
90. Baron, I, 320.

91. أبو الفدا ف
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham , J.E.; 16n.
92. Lestrange, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
93. Lane, E. W., *Arabiam Society*, 203.
94. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.

CHAPTER XII

1. In Ameer Ali, *Spirt of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S.. *Cairo*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*,
6. Bakhsh, *Studis* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, Introdution and p. 86; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes,
8. Bukhsh, 49.50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1,275.
12. Pope, *Mosterpices of Persion Art*. 151.
13. Sarton, I, 662.
14. Gibbon. V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sarton, I, 637.
19. De Vaux, I 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول
21. Sarton, I. 530.
22. Arnold and Guilfsume, *Legocy* 385.
23. Sarton, I. 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78.
27. البيرونى ٧٨
28. البيرونى
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*. 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guiliaume, 395.
31. البيرونى
32. Buksh, 181.
33. Sarton, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabiam Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثانى
37. Thompsom. J. W., *Economic ond Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medival Islam*, 331.
39. Ameer All, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg. J. H. *Rational Hydrotherapy* 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History af Medicine*, 1929 137.
44. Arnold and Guillaume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 661.
49. Sarton, I 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٣
52. in Draper. J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I. 411.
53. John. I, 1-3.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer. 101; Amold and Guiilaume, 255.
56. Arisotle *De Anina*, iii, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

Hitti, 853 ; Muir *Caliphate*, 521.

59. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 408.

60. Dawson, 155.

61. ابن خلدون

62. G'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History*, 153,

63. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 412.

64. De Vaux, IV, 12 - 18.

65. Boer 123.

66. Ibid., 81f.

67. Husik, I., *History of Medieval Jewieh Philosophy*, xxxix.

68. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenne*, 21.

69. Ibid., 106, 114, 121, 151 ; Hastings *Encycloped of Religion and Ethics*, XI, 275-6 ; Boer, 136.

70. Salibu, 170 ; Gruner, O. C. *Tpeatise on the Canon of Medieine of Avicenna*, introd., p. 9.

71. Beer, 138 - 42.

72. Salibu, 208.

73. In Ameer All, 395.

74. Boer, 144.

75. البلاذرى جـ ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Maius*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.

76. Salibu, 27.

77. Arnold and Guillaume, 311.

78. قانون ابن سينا ص ١١٨

79. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, 7.

80. ابن خلدون

81. Browne, *Literary*, I, 426.

82 Hitti, 435.

83. Nicholson, R. A., *Studies in Mysicism*, 4 - 5.

84. Macdonald, *Religious Attitude*, 169 - 21.

Nicholson, *Studies in Mysticism*, 78.

85. Ibid., 25.

86. Arnold and Guillaume, 219.

87. Hitti, 438.

88. Browne, II, 265.

89. Nicholson, *Studies in Mysticism*, 6-21.

90. Id., *Trauslations of Eastern* 98-100.

91. In Browne, II, 265.

92. Nicholson, *Mysticism*, 28-31, 38.

93. Browne, I, 404 ; Dawson, 158.

94. Hitti. 443.

96. مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية جـ ٤ ص ٨٩

97. Lane-Poole, *Cairo*, 154.

98. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, 48,

99, Id., *Translations*. 33.

100. Nicholson, R. A: *Literary History of the Arabs*, 295 ; ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٣

101. De Vaux, IV. 252.

102. Browne, I, 369.

103. Nicholson, *Islamic Poetry*, 133-7

104. Rihani, A: F., *The Quatrains of Abu'l Ala* (al-Ma'arri), vii.

105. Nicholsan, *Literary*, 319.

106. Id., *Islamic Poetry*, 148.

107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.

108. Nicholson, *Islamic Poetry*, 108.

109. Ibid., 191-2.

110. Ibid., 121.

111. Id., *Translations*, 102.

112. Id., *Islamic Poetry*, 150.

113. Ibid., 160.

114. Ibid., 161-5.

115. Id., *Translations*, 102.

116. Id., *Islamic Poetry*, 119.

117. Ibid., 127.

118. Id., *Translatioas*, 102.

119. Id., *Islamic History*, 140
120. In Browne, II, 120.
121. للفردوسى الحدينامة
122. الفردوسى الشاهنامة
123. نفس المرجع ترجمة اتكنسن وقد ترجمه ماثيو آرنلد فى سهراب ورستم
124. In Pope, *Survey of Persian Art*, II, 975.
125. Cf. "The Nazarene Broker's Story" in Burton, *Thousand Nights and o Night*, I, 270.
126. Pope, *Survey*, II, 1439.
127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
128. Lane *Arabin Soeiety*, 54-61.
129. Pope, II, 927 ; Heli, 109.
130. Creswell, I' 239.
131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
132. Pope, II, 975.
133. Pope, IV 317-28.
134. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 200.
135. Arnold and Guilaume, 117.
136. Pope, II, 1447.
137. Fenollosa, F. F., *Epochs of Chinese and Jopanese Art*,I,21; Pope, *Survey* I, 2.
138. Pope, II, 1468.
139. Guillaume, 128.
140. Encylopeadia Britannica, XV, 654.
141. Ibld.; Hitti, 420.
142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
143. Ibid., 21.
144. Lane, *Arabian Society*, 117.
145. Ibid.' 15.
146. Hitti, 274.
147. Farmer, H. G., in Arnold and Guillaume. 358.
148. الجلستان
149. In Arnold and Guillaume. 859.
150. Farmer in Aronld and Guillaume, 867.
151. Ibid., 372.
152. Ibid., 361; Farmer, H.G., *History of Arabian Music*, 154.
153. Farmer in Arnold and G., 359.
154. Hitti, 214.
155. Farmer, 31.
156. Ibid., 112.
157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*, 156.
158. Farmer, 120.
159. Ibid., 124.
160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.

CHAPTER XIII

1. Gibbon, V, 344.
2. Sarton, I, 466; II (ii). 599.
3. Ueberweg, I, 409.
4. Tarn W.W., *Hellenistic Civilliza: tion*, 217· Sarton, I, 466.
5. Gibbon, V, 346.
6. Munro, D. C., and Sellery, G., *Medieval Civilization*, 170.
7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
8. Browne, II, 223.
9. Hitti, 625.
10. Browne, II, 223, Margoliouth, D.S., *Cairo, Jerusaiem, and Damascus*, 46.
11. Nöldeke, 3.
12. Hitti, 626.
13. Arnold and Gullillaune, 163.
14. Pope, Arther U., *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture*, 237.
15. Lane, *Arabian Society*. 54f.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
17. Pope, II, 1488.
18. Arnold and Gullaume, 116.
19. Dimand, M. S., *Handbook of Muhammadan Art*, 255; Arnold, *Paining in Islam*, 127.
20. Margoliouth, *Cairo*, 69.
21. Arnold and Guillaume, 333.
22. Arnold, Sir T.W., *The Preaching of Islam*, 102.

23. Pirenne, Henri, *Mohsmmed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 605.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Cicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25,
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرى فى نفح الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرى
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522;Calvert, A.F.,*Seville*11
37. Lane - Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 633, 689:
39. المقرى
40. Dozy, 234.
41. Gibbon, V, 376.
42. Chapman.C.,F., *History ofSpain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Laue-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham. J. H., Power, E., *Cambridge Economic History, of Europe*, 136; Barnes, *Economic Hisory*, 114.
46. Clapham, 354-5,Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
48. *Cambridge Medeival Hisiory*, III, 432.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universalle*, II, 117.
50. Ibid , 19.
51. Arnold. *Preaching*, 134; Dozy, 235.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 235,Lane-Poole, *Moors*, 47
57, Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 534.
62. المقرى
63. Thompson. J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرى
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرى
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرى
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرى
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II. 176.
2. Ibid., 177 ; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 190.
4. Marco Polo, *Travels*, i, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 313.
6. Hitti, 446.
7. Thompsom, J.W., *Economic and Social History*, 391 ; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli inLane-Pooie, *Cairo*, 84.
9. Hftti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 41.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1043,
15, Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art : Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time* Magazine, Ian. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 375.
29. Ibid., 392.
30. Sarton, I, 759.
31. Ibid., II (i), 8.
32. Ibid., I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the Post*, 21.
26. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Browne, II, 108.
38. Ibid , 256.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encyclopepia of Islam*, III, (ii), 988.
40. Weir, .16; Nicholson, *Islamic Poetry*,5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 36.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith.Margaret,ed., *The Persion Mystics : Attar*, 20 - 7.
40. جلال الدين الرومى ، مختارات من ديوان شمسى تبريزى
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sarton, II (ii), 872.
50. Browne; II, 521.
51. السعدى
52. السعدى فى الجلستان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 530.
55. الجلستان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizstions of the East, Vol. 1 : The Near and Midple East*, 272.
57. الجلستان ١٢
58. ٣ — ٢
59. ٢٧ — ٢
60. ٤٠ — ٢
61. ٧— ٤
62. ٥ — ٥
63. ٤ — ٥
64. ٢٠ — ٧
65. ٤ — ٧
66. ٣١ — ٨
67. ٣٨ — ٨
68. ٤ — ١
69. ٨ — ٧
70. ٢ — ٣